المحاضرة الثالثة عشرة: الصحافة الوطنية الإستقلالية

تُعد الصحافة الوطنية الجزائرية إبان الفترة الاستعمارية ظاهرة فريدة في تاريخ الإعلام المقاوم؛ فهي لم تنشأ كترفٍ فكري أو نشاط تجاري، بل ولدت من رحم المعاناة لتكون "خندقاً" متقدماً في مواجهة المشروع الاستعماري الهادف لطمس الهوية الجزائرية. لقد أدركت الحركة الوطنية بمختلف اتجاهاتها، منذ مطلع القرن العشرين، أن المعركة مع الاحتلال ليست عسكرية أو سياسية فحسب، بل هي معركة وعي بالدرجة الأولىو.من هنا تحولت العناوين الصحفية من مجرد صفحات لنقل الخبر إلى منابر لتشكيل الرأي العام الوطني، وصياغة المشروع الاستقلالي، والذود عن مقومات الشخصية الوطنية (الدين، اللغة، والانتماء). ورغم الترسانة القانونية الزجرية، وسياسات المصادرة والرقابة التي فرضتها الإدارة الاستعمارية لإسكات هذا الصوت، إلا أن الكلمة الحرة استطاعت أن تخترق الحصار، ممهدةً الطريق للفعل الثوري المسلح الذي توج باستعادة السيادة الوطنية عام 1962.بناءً على ما سبق يمكننا طرح التساؤل الجوهري التالي:كيف ساهمت الصحافة الوطنية الاستقلالية في تحويل الوعي السياسي إلى فعل ثوري ميداني؟ وما هي الاستراتيجيات النضالية التي اعتمدتها لمواجهة آلة القمع الإعلامي الاستعماري والحفاظ على مقومات الهوية الوطنية حتى انتزاع الاستقلال؟.

أولا: الجذور التاريخية والمسار النضالي للصحافة الوطنية:

إنّ المتأمل في بواكير الصحافة الوطنية الجزائرية يجد أنها لم تكن ترفاً فكرياً أو مجرد وسيلة لنقل الأخبار، بل ولدت من رحم المعاناة كضرورة نضالية فرضها التحول العميق في بنية المجتمع الجزائري مطلع القرن العشرين. فقد تزامنت نشأتها مع بزوغ طبقة من النخبة المثقفة التي أدركت مبكراً خطورة المشروع الاستعماري الهادف إلى طمس الهوية الوطنية وتشويه مقوماتها الأساسية. وفي هذا السياق، برزت الصحافة الإصلاحية كطليعة للمقاومة الفكرية، حيث استلهم رواد النهضة من الكلمة المكتوبة سلاحاً استراتيجياً لإعادة بناء الوعي الجماعي، والحفاظ على ثوابت الشخصية الجزائرية المتمثلة في العقيدة واللغة. لقد شكلت هذه المرحلة التأسيسية مدرسة نضالية متكاملة الأركان، حيث نجحت في نقل العمل الصحفي من مجرد استعراض أدبي واجتماعي محدود إلى فضاء المواجهة السياسية المباشرة مع الإدارة الاستعمارية. وبذلك، وضعت هذه الصحف اللبنات

الأولى لثقافة المقاومة بالكلمة، وأسست لخطاب وطني راديكالي كان بمثابة التمهيد الفكري الضروري الذي سبقت به الأقلامُ فوهاتِ البنادق بعقود من الزمن [1].

شهدت الساحة الإعلامية الجزائرية خلال الثلاثينيات والأربعينيات تحولاً دراماتيكياً تزامن مع نضج الفكر الاستقلالي، حيث انتقلت الصحافة من مرحلة «المطالبة بالإصلاح» إلى مرحلة «المجاهرة بالسيادة. فقد تحولت الجرائد الوطنية إلى قلاع حصينة لمختلف تيارات الحركة الوطنية، وعلى رأسها التيار الاستقلالي الراديكالي الذي وظف الكلمة كأداة لتعبئة الجماهير وكسر حاجز الخوف من المحتل. ومع اندلاع الثورة التحريرية الكبرى عام 1954، ارتقت الصحافة إلى مصاف «السلاح الاستراتيجي، وبرزت صحافة حربية بامتياز جسدتها جريدة **المجاهد** ولسان حال جبهة التحرير الوطني، التي لم يقتصر دورها على نقل أخبار المعارك، بل أصبحت فاعلاً ديبلوماسياً نجح في تحطيم جدار التعتيم الإعلامي الفرنسي وتدويل القضية الجزائرية في المحافل العالمية، لتكرس بذلك وحدة مصيرية لا تنفصم بين صرير القلم ودوي الرصاص في معركة التحرر الشامل[2].

ثانيا: الصحافة الوطنية في مواجهة السياسات الإستعمارية:

اصطدمت المسيرة النضالية للصحافة الوطنية ببيئة تشريعية قمعية صاغتها الإدارة الاستعمارية بدقة لإجهاض أي محاولة للتعبير الحر؛ فلم يكن العمل الصحفي حينها مجرد مهنة، بل كان مواجهةً يومية مع ترسانة من القوانين الزجرية. وقد تجسد هذا الحصار في فرض نظام «الرقابة القبلية» الذي منح السلطات صلاحيات مطلقة لبتر المحتوى الإعلامي أو مصادرة النسخ المطبوعة تحت ذريعة «تهديد السكينة العامة». ولم يقتصر التضييق على الحظر المادي، بل امتد ليشمل «الحرب المالية والقانونية» من خلال إغراق المؤسسات الصحفية وأصحابها في دوامة من المحاكمات الكيدية والغرامات التعجيزية، في استراتيجية ممنهجة لكسر شوكة الأقلام الوطنية، وتجفيف مواردها لإجبارها على التوقف النهائي عن النشر[3].

رغم كل محاولات المنع، لم يستسلم الصحفيون الجزائريون، بل ابتكروا طرقاً ذكية للاستمرار في النضال؛ فكانوا يغيرون أسماء الصحف بمجرد توقيفها، وينشرونها سراً لتصل إلى القرى والجبال بعيداً عن أعين الاستعمار. ومع بداية الثورة عام 1954، تطور هذا الكفاح ليصبح سلاحاً عالمياً؛

---

[1] عمار هلال، **نشأة الحركة الوطنية الجزائرية 1914-1918**، (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2002)، ص 45

[2] عبد القادر جغلول، **تاريخ الجزائر الحديث: الوعي الوطني والتحولات السياسية**، (الجزائر: دار الحداثة، 1984)، ص 182 .

[3] **زهير إحدادن**، *تاريخ الصحافة في الجزائر: من البدايات إلى عام 1962* ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000، ص 154.

حيث كشفت الصحافة الثورية كذب الدعاية الفرنسية التي حاولت تشويه صورة المجاهدين، وخاطبت العالم باللغتين العربية والفرنسية. وبذلك، نجحت الكلمة في تحويل القضية الجزائرية من مجرد صراع داخلي إلى قضية دولية عادلة، مما ساعد بقوة في تعجيل النصر وتحقيق الاستقلال [4].

نستخلص في الختام أن الصحافة الوطنية الاستقلالية لم تكن مجرد وسيلة لنشر الأخبار، بل كانت **عقيدة نضالية** ومدرسة خرّجت جيلاً من المناضلين الذين آمنوا بأن الكلمة لا تقل شأناً عن الرصاص في معارك التحرر. لقد استطاع الصحفي الجزائري، برغم الحصار والرقابة وأدوات القمع الاستعماري، أن يصنع رأياً عاماً وطنياً ملتفاً حول فكرة الاستقلال، وأن ينقل صوت الثورة من أزقة القصبة وجبال الأوراس إلى أروقة الأمم المتحدة.

إن هذا المسار الحافل يثبت أن **الإعلام المقاوم** كان الركيزة الأساسية التي استندت إليها الهوية الوطنية للحفاظ على كيانها، وهو ما يجعل من دراسة تاريخ هذه الصحافة ضرورة لفهم كيف ساهم "سلاح الكلمة" في تعبئة الجماهير وتعبيد الطريق نحو استعادة السيادة الوطنية عام 1962. وبذلك، تظل الصحافة الاستقلالية نموذجاً ملهماً في التضحية والالتزام بالقضايا العادلة

---

[4] **أحسن بومالي**، *الصحافة الجزائرية والثورة التحريرية: دراسة في النشأة والتطور*، (الجزائر: دار الأمل للنشر والتوزيع، 2007)، ص 88.